أشكال التعبير وإجراءاته

مقدّمة:

إنّ التعبير الكتابي مهما كان " ظاهِرة " حرّة في متناول كلّ إنسان يملك القدرة على التسطير بالقلم أو " أداة " رسميّة مُنمَّطة حسب مقتضيات إداريّة وأخرى فنيّة أو أكاديميّة، فهو يحتاج إلى المزيد مِن الضّبط الذي رغم قابليّته للتغيّر حسب تغيّر الحاجات ؛ ونجد التلميذ الذي يسعى إلى تعلّم التعبير الكتابيّ يطالِب معلّمَه بعناصِر تعليميّة تزوّده بالانضباط وإلى صيغة يعرف بها كيفيّة إخراج النصّ على الأقلّ، وهذا كلّه يستدعي أوّلاً ما يمكِن أن يعتمِده ذلك المتعلّم من الإجراءاتٍ، نذكر منها

نشتقّ الإجراء مِن الحاجة التي تتفاوت لكن بإمكان المعلّم أن يُنزِلها منزِلة الموضوع فيجرّدها ـ في حدود الإمكان ـ من الشوائب الذاتية العالِقة لكن مِن غير أن يبدي موقِف التنكّر لهذه الأخيرة.

1. تفريع التعبير:

يحصل هذا التفريع تحت إلحاح وتواجُد ما يُدعى أشكال التعبير، ويقع أيضًا بإيحاء من بعض الباحِثين المجتهِدين المستعمِلين لتسميات كـ " أنماط التعبير " وكذلك " أنشِطة التعبير "، وقبل ذلك يتحدّثون عن " أجناس التعبير " ثمّ " أنواعه " بل و" مَسَالِكه ". لهذا نجد مِن هؤلاء مَن ألحق بالتعبير الكتابي كنمَطٍ تعبيريٍّ متميّزٍ أنشِطةً متنوّعة مستعرِضًا مجمل مقوّماتها كـ : التعليمات والإرشادات، والإعلانات واللاّفتات، وبطاقات الدعوة والاعتذار، وكتابة البرقيات، وملء الاستمارات، والمذكّرات الشخصية، والرسائل الرسمية، والرسائل الوديّة، والكلمات الافتتاحيّة، والكلمات الختامية، والشكاوى، والتوثيق.

قد يثير مثلُ هذا التفريع للتّعبير الكتابيّ وحده ـ أو بعض هذه الأنشِطة ـ أسئِلةً عديدةً تتعلّق بجدواها أو عدم جدواها، وينزع قِسمٌ آخر منها إلى معرفة المنطلق أهو توسيع رقعة تلك الأنشِطة أم يتعلّق الأمرُ بما هو حاصِلٌ في أمر الواقِع وليس أكثر ؟ وعلى كلٍّ هناك حالة من عدم الارتياح يبعثها التفريع لكون:

1. بالإمكان أن نقرأ على خلفية تلك الأنشطة ما هو شأنٌ شخصيّ يتقاطع مع كثيرٍ من الفنون الإبداعيّة وآخر إداريّ تتولّى المصالح الإداريّة أمرَ تشغيل آلياته

وتوليد فروعه وثالثٌ بحثيّ تندرج فيه قضايا تخصّ الجانب التقنيّ ـ وهو ما نعرض له في مقامه لاحِقًا ـ.

2. وقد قام هذا النوعُ مِن التفريع على التمييز أوّلاً بين ما هو من مسلك الكتابات الإبداعية وما يعدّ مِن مسلك الكتابات الوظيفيّة.

إجراءات التّعبير:

إجراء الوصف:

كثيرًا ما قيل إنّ الوصفَ يختصّ بالمشاهِد في كلِّ شكلٍ تعبيريّ يقوم على الرواية والقصّ بينما يتولّى السّردُ شؤونَ الأحداث المَروية. فأصحاب هذا القول لا يجانبون الصواب إذا أوصدوا الأبواب على أنفسهم وحجزوا نظراتهم في ذلك الشكل التعبيريّ فحسب، أمّا إذا فتحوها على أشكالٍ أخرى فسرعان ما يبدو لهم ما أخفي عليهم من كون الوصف كأسلوبٍ تعبيريٍ يحوّل الظواهر المتاحة للنظر والمنفلِتة عن الناظِر إلى معطياتٍ تتداولها الأقلام وتتناولها الألسنة. فالشكل التعبيري المصطلَح عليه بالقال وهو خاصٌّ بالتعبير الكتابيّ لا ينفكّ يعتمد على الوصف هو الآخر نظرًا لمناسبته للجوّ العام الذي يسود هذا الفنّ من هدوء صاحبه.

بواعِث التعبير وأزمات الوصف:

ما يبدو للوهلة الأولى أنّه يكفي ترديد البصر على الأشياء لكي تُرى هذه الأشياء، ثمّ لا يبقى للفرد إلاّ أن يُمعِن في وصف ما يرى؛ بيد أنّ الأمر نفسه قد يتيح فرصةً تكشف لصاحِبها مدى قلّة حيلته في الاهتداء إلى الوصف المنشود: لا يعرف كيف يتصرّف حينها ولا علمَ له بماذا يبادر به كخطوة أولى، كما قد تخونه الكلمات ولا يجيء بعضُها في الوقت المناسِب وفي الموضِع الصحيح؛ ثمّ على المرء أن يتذكّر دائمًا أنّه إذا وجَد ما يعبّر عنه فالأفضل له ألاّ يشاء قول كلّ شيء دفعةً واحدة وبدون مراعاة التعبير أوّلاً بأوّل.

ولا يُستبعَد أن يصادف الإنسانُ نفسَه في وضعٍ يحسّ فيه فراغًا يُدرِكه أنّ لا شيءَ في الأفق يحتاج إلى التعبير عنه بالوصف. هذا أيضًا لا يساعِد كثيرًا على وضع استراتيجية للوصف الدقيق أو العام.

يعتبر الوصف هو أصل كل أغراض الشعر العربي, فإذا أراد الشاعر مدح شخص ما فإنه يذكره بما حسن, وإذا أراد الهجاء فإنه يذكره بما يسوءه, وإذا أراد التغزل فإنه يصف المرأة, وهكذا.

ويمكننا تقسيم الوصف إلى طبقات:

الأولى: وصف ما تدركه الحواس, مما تراه العين, أو تسمعه الأذن, وغيرها.

الثانية: وصف ما يوجد من أحاسيس, أو يدور من أفكار.

الثالثة: وصف الخيال والتصورات.

ويختلف الناس في التعبير بالوصف اختلافا بينا, ويرجع ذلك إلى سببين:

الأول: زاوية النظر, فلا شك أن هناك فرقا بين واصف يرى الشيء من زواياه المتعددة, وبين واصف يقتصر في واصفه على زاوية نظر ضيقة.

الثاني: دقة النظر, والتركيز على وصف المطلوب.

ويعتبر امرؤ القيس شاعر الوصف بالدرجة الأولى عند النقد, فقد اشتهر في معلقته وصف الخيل والليل والطبيعة, وغيرها, ومنه قوله في وصف الليل:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الهُمُوْمِ لِيَبْتَلِي

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

ألاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيْلُ ألاَ انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الإصْبَاحُ منِكَ بِأَمْثَلِ

فَيَا لَكَ مَنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلِ

وقال في وصف فرسه:

وَقَدْ أغْتَدِي والطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كَجُلْمُوْدِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

لَهُ أيْطَلا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وإِرْخَاءُ سَرْحَانٍ وَتَقْرِيْبُ تَتْفُلِ

كَأَنَّ دِمَاءَ الهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ عُصَارَةُ حِنَّاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ